

قبل سنين ، حينما كنا نمرّ امام ساحة ترفلغار ، كنا نجمد فيها كل مرة ، وكانت تقول : « ها انت » ، وتشير الى نصب نلسون السامق الراسخ ، ثم تشير الى احدى الحمامات العابرة وتضيف : « وها انا » . وكل مرة كانت تغيب ، كانت تعود لخاطري صورة النصب والحمامة . في احدى فترات غيابها كتبتُ هذه المقاطع المخرقة في الرومنطيقية ، وقرأتها عليها ، بلغتها ، عندما عادت . ولما غابت بعدها من جديد كان غيابها آخر غياب . فانها لم تكن حمامة وحسب ، بل كانتها وكانت غرابا .

ع . ا .

أسعد عاصي آثار أقدم

من هذا العلوّ الشاهق انظر . لا ارى الناس . والحافلات والمباني تغبش متحرك وساكن . وانا جامد في هذا العلاء ، عاجز حتى عن الدوار . ولم اكن ، من قبل ، اعرف ان في الصخر ايضاً درجات ، فاذا بالحمامة الغريبة تترك الصخر الذي صُنعتُ منه ، حين توّلي ، اصلب منه بالامس . واذا ذاكرتي كعيني ، نصفها ميتت ، وكلّ ما لا يتصل بالحمامة الغريبة مُضاع .

من تحتي المظاهرات والهنافات العنيفة ، والعاشقون والباحثون عن يعشقون ، والمصورون والنشالون والشرطة ، والاجانب والمواطنون ؛ وعن قريب القصور والمجالس والمتاحف والكنائس ،

وطرفي لا يريم .
 انها عيني المبصرة ، رسولة الفواجع ؛ لا الخالية . لا تغمض ولا تكل . ولا يحجب
 عنها الرؤية ليل او ضباب .
 ابدأ تحديق بالبقعة ذاتها من الفضاء ، حيث رف جناحان مرة ، لوقت قصير ، ولم يعد
 يرفرف الجناحان .

ويتحدثون عن شموخي ، فلا يدور ببال اي وهن في ذلك النصب المعزول عن
 الارض ، اي شحوب ، اي فراغ .
 ولا يعرف احد ان ما من يد تمسح عن الجبين العرق ، ولا يلحظ احد كم اسودت
 وعمقت جيوب العيون ، وكم ارتسمت على الوجه مرارة ولا امل .

الفراق لم يكن بالمفاجيء .
 في كل لحظة كانت بذوره . كل عشية كانت تفح : لا صباح . وكنا كل صباح شبحين
 يبعثان ، وصوتها على الهاتف كان يحيي من البعيد البعيد .
 الملح من ان لا مستقبل كان يعطي لحظة الحاضر ابعاداً جديدة : الملح من ان لا مستقبل
 كان يحدث ، يقلص ، لحظة الحاضر . ومع كل خاطرين وكل نظرتين كان السؤال
 وكان الملح : اتكون هذي اللحظة الاخيرة ؟
 الفراق لم يكن بالمفاجيء . لكنه حين جاء لم يخفف من هوله انه لم يكن بالمفاجيء .

من تقلاتي ببحر و بحر ، من انتصابي الصاقع وسط المدينة ، شهدت كل انواع
 الاخضرار .

خضرة الانهار والامواه ، خضرة الاعشاب والاشجار والمنتزهات والازهار ،
 خضرة الاثواب واللوحات .

كل ظلال الاخضرار شهدت - كلها اصبح شاحبا عكيرا :
 غير عيين خضراوين خضرة غريبة .

ويقولون ان في الساحة، من دوني، حماماً كثيراً ، وفي الجو أكثر .
لا ارى واحدة .

ام انها تحومُ ، حين تحومُ ، امام عيني الميَّتة ؟

سواها من الحمامات ، أجل ، ينسب امامي ، تعبت اجنحتهن بوجهي ، من حين لحين .
يلسن الصقوعة والجفاف ويولتين مسرعات .
وان تلكأت قليلاً واحدة ، فلأنها تجد في فجوات الصخر اراحة لاحشاء زهيدة .

ومن حين لآخر كانت تمر امامي ، من بعيد ، حمامة .
فقيدة ؟ منفية ؟ عاصية ؟

تمر وترتد ، وحيدة . وكلما رأيتها ، وادركت ان غيري يعاني ربما ما اعاني ،
كانت تمس عيني عصا موسى ، وبيتل الحجر ،
واستعيد وجهاً قد سياً دامعا بكنيسة موحشة ، قفراء حتى من بخور ونغم .

اقفوت ، منذ غبت ، الديار :
تري ، لحن الخصب بك ؟

« كتاجر يطلب لآلئ حسنة ، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن ، مضى وباع كل
ما كان له واشتراها . »

وحدك ، يا يسوع ، تستطيع ان تخفف عني وطأة السؤال الملح :
وماذا اذا ، بعد ان باع كل ما كان له واشترى اللؤلؤة الواحدة التي لا تُقدّر بثمن ، افاق
ذات صبح حالك فالقى اللؤلؤة الواحدة قد اختفت ؟
وماذا اذا ، بعد ان باع كل ما كان له واشترى اللؤلؤة الواحدة التي تُقدّر بثمن ، افاق
ذات صبح حالك فالقى اللؤلؤة الواحدة قد اختفت ؟
وحدك ، يا يسوع ، تستطيع ان تخفف عني وطأة السؤال الملح .

ومنذُ انسحبتُ بسأُتكِ لم ينقشعِ الضباب .

ونحنُ معاً لا حاجةَ لكلام .

كلُّ كلمةٍ تتلفظُين بها عذراء ، هالونُ عينيكِ انتِ وفيها غموضك . كلُّ عبارةٍ تنفوهين بها زواجٌ شاذٌ بريء .

صوتكِ ، الذي يبدو منفصلاً عنكِ أو لا ، ويبدو بعدها جزءاً منكِ زوالةُ كزوالِ عينيكِ أو لفظةٍ وجهكِ أو تبدلِ قسماُتكِ المفاجيء ، يُضفي على كلماتك الجديدة اثواباً جديدة .

والكلامُ العاديُّ ذو معانٍ ، والفاظكِ المفردةُ المقاطعُ نوافذُ تطلُّ على حدائقِ وصحارى وملاعبِ ثيرانٍ ومعابد .

ولكن ، ونحنُ معاً ، لا حاجةَ لكلام .

طوالِ أيامنا ، التي بدتُ أقلَّ عددًا حتى من الواقع ، وان عمرتُ بما لا تعمر به السنون ، لفظةٌ وحيدةٌ بقيتُ اجنبيةً على معجمي ، وناءتُ بها وبمشتقاتها معاجمُ الغير . عصيتُ ابدأً على شفقي ، ولم تكونا لتقولاهما ولو لم تعصَ عليهما .

كم رسالةٌ كتبتُ لكم امرأة . كم فلذةٌ في قصيدةٍ انبعثتُ بعد سنين ، ولادةٌ مسيخةٌ ، من معرفةٍ لامرأة . كم آهةٌ سخيفةٌ وليلةٍ ارق . كم تشابكٍ لاصابعِ عشرٍ ونطٍ ارعنَ بينِ خيوطِ المطر . كم شذىً مركَّبٌ وكم عطورٍ افرازٍ منفّرٍ : وصحتُ « احبك » ، او همستُ ، او كفرتُ ، او ابتهلت .

لا . لفظةٌ وحيدةٌ بقيتُ اجنبيةً على معجمي : ولم تكن لتُدجن .

ولن اقدسَ لفظةً ، باستعمالها لكِ ، كنتُ قد لوّثتها باستعمالها لسواك .

في الصبحِ اجثو ، اعرّني نفسي امانه .

اروي له الكباثرَ والصغائر ، ماتمّ وما لم يتمّ . ارفعُ التقاريز ، واعرقُ اعترافاتٍ ،

واستسديه نصائح . اكرّر ذاتي ، من صباحٍ لصباح . واستحدثُ ، كل مرةٍ ،

طلباً او طلبين ، واشكو مرارةً جديدةً ، واشكر لومضةً غيرَ منتظرة .

ولم ادرج اسمك في تقاريري ، ولم ابح له عنك بشكوى او بشكر . واختصرت
الصلوات ، لاعود اليك ، لوحدي ، استأثر ، ان اسطعت ، بك -
ولم اشأ ان يشاركني الله فيك .

واعياً واعياً

اسلمت لك شعري النذير .

لان اقول اني فقدتُ بفقدتها كل شيء ، ان لا رفيق لي ولا اخ ولا بيت ولا مطمح
ولا انشغال ، لأن اقول الكذب .
فقدتها لم يذبل كوارث ، لو انها كانت كل شيء ففقدتُ بفقدتها كل شيء .
فقدتها ذبل الكارثة ، لاني اذ فقدتها ، وظل لي رفيق وظل اخ وبيت ومطمح
وانشغال ، لم اعد ارى غير حلك وبياب وخواء .

المصارع الموج ، الغريق ان استطال الصراع دقائق ، باي بأس يهجم على الخشبة ،
باي عزيمة .

سراب البحر اخشاب ، تراها العين بين موجة وموجة ، ولا ترى من ثم شيئاً .
يتمسك ، يتشبث ، بالخشبة الغير سراب .

تحمله ، يحملها ، للامان .

غير هجومه ، غير تمسكه وتشبته ، بيخت : يحمله اليخت للامان ، ولا يحمل له هو
ولا لربه وضيوفه وحفلاته ، غير ازعاج وتشويش رتابة واقاصيص تحكي في
الغد .

غير هذا هجومه وتمسكه وتشبته بالخشبة :
تحمله ، يحملها ، للامان .

نوء ونحن معاً ، ونوء ونحن مفترقان .

ومن نقرع ، نلوم ، نسب ، لانك بحر هيوج وذراعي موثوقتان ورجلي من رصاص؟

وإذا ما قُذفتُ مرةً تلوَ مرةٍ وسطَ - دونَ ومن بعدَها فوقَ - امواجكِ ، فهل اهتَلُّ
لمنجايَ ام اتوقُ ، احنُّ ، للغوصِ للارتقاءِ في اعماقكِ ولا صعودِ ؟

في فخبطني في اليمِّ ، ولا برِّ ، وتخبطني بين حبِّ بقاءٍ وحبِّ فناءٍ ، ضياءُ قصيِّ التمتعِ .
تراخي الموجُ تحتِ اصرارهِ ، ولا خبوِّ ، وكأنَّ الضياءَ يدُّ ولهي تُداعبُ ، تريحُ ،
فوضى جسمِ عصفٍ . وامخرتُ ، منفلتاً من فناءٍ وماضٍ ، اقبلُ المنارةَ
القابلة .

ودخلتُ . ورأيتُ .

منارتي المنقذة صقلبُ مفرشِخ . ضيائي المنجِّي عينُ تتوقدُ وسطَ جبينه .
وفتحتُ عيني ، ولم اعدُ ارى . في جوفه استقرتُ .

يا من يظنُّ ندبي ناجماً عن هذي النهايةِ ، يا من يظنُّ اني جُبرتُ جراً للفاجعة ، يا من
يظنُّ مفاشلي تتوجتُ بهذا الفشل :

كيف اقولُ لك ، كيف اقول : ان ندبي لواحد ، ان ندبي لواحد ،
ان ندبي لاني لَفُظتُ ، فيما بعد ، من جوفِ الصقلبِ ؟

ملولةٌ انا ، كنتُ تقولين ، ولم تكن من حاجة لان تقولي .

وكنتُ اذا اسمعك تقولينها ، او اشهدك تدلّين ، عن غيرِ وعيٍ ، عليها - ارتجف :
انتظرُ (لا اعرفُ ، اليومَ تأتي او غدا) اشارةً اقصائي ، او انسحابكِ ، او بقائنا
معاً مقصيً ومنسحبي .

ملولة انا ، تقولين ، وماذا يُفعلُ بالنواة الا ان تبصقَ وقد اكلت الثمرة ؟
ثمرة ؟ ورأيتك شجرةً ، متعددةً المواسم ، لها في كلِّ موسمٍ شذىً وزهرٌ واوراقٌ
وقطافٌ وفير .

لكلِّ شيءٍ ثمن ، وابهظُ الاثمانُ ثمنَ الهناء .

كلما ضحكتُ مرةً ادركتُ اني سأصفع . كلما انزاحت الكوايبسُ المعششةُ المستوطنة
تهبَّتْ اذنايَ لدقاتِ ناقوس . كلما انتهى عصرُ فحشٍ ومجازرٍ وانتهاكٍ وكفرٍ

وجنوت كجوستين بريئة نقيّة بعد ألف الف اغتصاب، وعفّرتُ صدري ووقفتُ فاتحاً
ذراعي رافعاً رأسي للسماء، انقضّت من السماء صاعقةً اغتصبتني الاغتصاب الاخير .
وكيف ، بعد ، لم اكن اتوقعُ كل هذا الشقاء، بعد اسابيعنا الخمسة في الخريف ، وسبعة
اسابيع في الشتاء ؟

لن اقول بعدُ : تكرر مي يا سماء .
لكل امرى مية ، ومرتين مت من قبل ان اموت . وقلتُ : بخلت علي السماء
بالف شيء ، فلتجد علي بهذا . ورضيت . بتحسّرٍ وتجرّح قلبٍ رضيت .
ومرةً ثالثة ؟ لا ، لم اكن احسب ان السماء ، حتّى ، قادرةً على مثل هذا الكرم .

واعرفُ انها هناك . اعرف ان « هناك » ناء ، لكنه مثلها هناك .
لست ادري : وحيدة هي ، او بسرب ، او وحيدة بسرب .
اعرفُ انها هناك ، ان جناحيها يحرّكان هواءً ، وهديلها تشرّبه اذنان ، ونعمة حضورها
ليست تُبذّر .
ولست ادري ان كان مجثمها الجديد يدري ما كنت ادري : ان هذي الحمامة ، كحمامات
الاساطير ، رسالة من سماء .

غبطني التي تبقت ، وعزائي ، يقيني انها هناك .
وارتعش ، ويرتعش معي الاسود الاربعة نخي ، كلما سمعت رصاصة او متفجراً من
اي نوع .

وغداً ان تم ما لن يتم ، وحلقت فوقي ، امامي ، من جديد ،
ان رفرفت في الجو (والعصرُ منذُ رفرفتُ عصرُ معجزات) ، ولم تقي للحظة ، ولم
تمنحُ جبهتي او انفي ظلاً ، (ظلّها كان يهزّني ، ويحترقني كفأس) ، وموتت ، بدون
نظرة ، بدون اتصال ،

فماذا تُرائي افعل ، وبداي من حجرٍ وقلبي يابى ان يكون من حجر ؟

واهدتني، لو ان في الهدى جدوى؛ واستريح، اخيراً استريح .
 لكنني اعرفُ عمرَ الراحة، وان مواظبي الصالحين انتحلوا البعث، وسيُنفقون فوق ما
 يُطبقون ويدكون نصف انصا بهم القائمة، ليرفعوني من جديد،
 ولأشقى من جديد؛
 ويخلد الشقاء: ومن شاء الخلود لم يحق له ان يُبلي نوع الخلود.

لانك اعجوبة، كان لقاؤنا اعجوبةً وفراقتنا اعجوبةً ووصلنا اعجوبة .
 واعرفُ ان المهتد الباتر كلمة اخيرة، وان للفصل الف نصل وليس للوصل من
 اداة .
 لكن لانك اعجوبة، اعرفُ ان كل ما يتعلق بك اعجوبة، ان ارحامنا انشطت من
 القبور، وان المهتد من ورق والفصل والوصل سيان .

لا - اصوخُ اليوم كله، مذ نأيت . لا - يقولُ رأسي وتقولُ اعصابي وتقولُ يداي .
 لا - عندما استعيدُ كل ما كان، وأشكُ حتى بماضٍ كان عصر سعدٍ وعجائب،
 اشكُ حتى بماضٍ هدتهُ خيانة الحاضر .
 لكنني في الاماسي وفي لحظات الحلم، في ابتهالاتي وعندما تعود لوجهي البسمة التي
 خلقتك جردتني منها يوم نأيت (كما جردتني من كل شيء)، لا اقول الا:
 نعم نعم
 نعم .